مديرية عتمة

شواهد أثرية وتاريخية (*)

د. جمال الدين أدريس *

مقدمة :

أن استخدام الإنسان للوسائل الصناعية في السيطرة علي الطبيعة وتسخيرها تلبية لاحتياجاته المتزايدة أدى إلى إلحاق الضرر بالبيئة الطبيعية والإنسان نفسه على حد سواء . ولهذا تداعت الأصوات الخيرة من أجل إقامة المحميات الطبيعية على المستوى العالمي بهدف إنقاذ وحماية الإرث الحضاري للإنسان والحياة البرية والبيئية عموماً .

ومن هنا تأتي أهمية اللجنة المكلفة بمشروع مديرية عتمة باعتبارها محمية طبيعية ، ويوازيه في الاهتمام تلك الاستجابة المقدرة لجامعة ذمار لقيامها بأجراء الدراسة العلمية والميدانية لمديرية عتمة الأمر الذي يعكس اهتمامها بنشر الوعي العلمي والثقافي ليس في نطاقها الجغرافي فحسب بل على المستوى اليمني .
وباعتباري شاهدا ضمن اللجنة المكلفة من جامعه ذمار ، يمكننا القول بلا تردد أن هذه المديرية تمتلك مقومات المحمية الطبيعية ، ولا سيما أن تنوعها البيئي والمناخي قد انعكس بسلاسة على ملامح شخصيتها

---

* استاذ مساعد ، قسم الآثار والمتاحف ، كلية الآداب والألسن ، جامعة ذمار

التي تزخر بالمخلفات والشواهد التاريخية والأثرية التي تعبر عن تطور الحضارة اليمنية الضاربة في أعماق التاريخ .

وسنحاول في هذا المبحث أن نصوغ ملامح عجلى لثروتها الحضارية ، علها أن تلقي بها في دائرة اهتمام الباحثين في مجالى الحضارة وإقامة المحميات ، وشاهدنا على ذلك هو ندرة تناولها في المراجع العلمية .

وعلى النقيض من ذلك تماما فقد لاحظنا خلال أيامنا الثلاثة في العمل الميداني كثافة في المخلفات الأثرية، ولذا فأن جمله ما توصلنا إليه لا يعدو أن يكون مسحاً وحصراً بشكل عام ، والذي نأمل أن يرسي الخطا لحفر علمي في المستقبل.

ولا يفوتنا أن نستميح القارئ عذرا ، فأنه لأسباب فنية لم نستطع الحصول على التوثيق الفتوغرافي المصاحب لهذا العرض .

إشكاليات تاريخية :

يزخر اليمن بثروة أثرية هائلة ، وهي بلا شك جزء من الإرث الحضاري لليمن وللعالم أجمع . ومما كشف منها حتى الآن لا يمثل إلا جزءاً يسيرا ، وما تزال أكثرها في باطن الأرض تنتظر المهتمين من اثاريين ودراسين مسحاً وتنقيباً ، وتتجلى مظاهر هذا الواقع في وجود حلقات تاريخية مفقودة في تسلسل التاريخ اليمني ولهذا يواجه الباحثون تحديا كبيرا يتمظهر في إشكالية الكتابة الكرونولوجية لتاريخ اليمن والقديم منه بشكل خاص والإسلامي ، وتتضح أولى مظاهر هذه الصورة في تقسيم تاريخ اليمن السياسي وفق المنظور الديني ، وهو تاريخ اليمن قبل الإسلام ، وتاريخ اليمن الإسلامي . وفي الأخير يعد التقسيم لا غبار علية إذ أن الإسلام قد أتى بحركة فكرية وحضارية ، أما تاريخ اليمن قبل الإسلام يقصد به التاريخ القديم عموماً، ولهذا فأنه يعبر عن اختزال اصطلاحي مخل ، إذ يدمج بين دفتيه أطول فترة تاريخية في عمر الإنسان ، ألا وهي عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية إذ أن كل عصر فيها يختلف عن الأخر بانجازات حضارية وتاريخية مما استوجبت التقسيم الإضافي المذكور أعلاه حتى اصبح متفقا علية، بين دارسي التاريخ وعلم الآثار وكافه العلوم الاجتماعية الأخرى .

واستلهاما لهذه الإشكالية التي نعتقد أنه قد توفرت أدله تستوجب مواجهتها[1] فقد كانت خطة عملنا الميداني في مديرية عتمة تتناول هذه المشكل ، وذلك على هيئة ثلاثة محاور هي :-

أولاً :اليمن في عصور ما قبل التاريخ .

ثانياً : اليمن في العصور التاريخية.

ثالثاً : اليمن في العصر الإسلامي .

اليمن في عصر ما قبل التاريخ :

في هذا المحور بذلنا جهداً كبيراً للعثور على أقدم الأدلة الأثرية لاستيطان الإنسان القـديم في أرض اليمن في مديرية عتمة .

ونقصد بعصور ما قبل التاريخ تلك العصور السابقة لمعرفة الكتابة التي ظهرت حوالي منتصف الألـف الرابع ق.م في بلاد ما بين النهرين ووادي النيل .

ومن هنا يمكننا أن ندرك كم هي طويلة تلك العصور خاصة إذا علمنا أن أول ظهور للإنسان يقـدر بحوالي ثلاثة ملايين سنه . هذه العصور تمثل أطول فترة في تاريخ البشرية ، حيث استطاع الإنسان خلالهـا السيطرة على الطبيعة وتكييفها واستصلاح الأرض ، وتدجين الحيوان وتربيته ، ومن ثم أنتقل إلى مرحلـه الاستقرار الدائم (بإنشاء القرى وقيام النظم الاجتماعية الخ ...) محدثا بذلك أول ثورة اقتصادية في تـاريخ البشرية لولاها لما قامت الحضارة الإنسانية ، ومن ضمنها حضارات الممالك اليمنية القديمة .

تتمتع مديرية عتمة بمناخ وبيئة طبيعية تتميز بخصوبة التربة وبمعدلات جيدة لسقوط الأمطار ومـا يتبعها من تنوع زراعي وحيواني وغطاء نباتي . يتفق هذا الواقع مع رأي علماء المناخ القـديم ، القـائل أن المناخ في جنوب الجزيرة لم يطرأ علية تغير كبير منذ أربعه ألف سنة[2] ، وتضيف الدراسـات الحديثـة في اليمن ، أنه ربما كان أكثر رطوبة مما هو علية الآن[3] . ومع ذلك لم نعثر في عتمة على أدلة تؤكد مظـاهر الاستيطان القديم ، مع توفر كل المقومات اللازمة .

ويمكننا أن نعزو هذا الأمر إلى أسباب مختلفة منها ، أن الوديان العميقة المنحدرة الواقعـة في الجهـة الغربية للمرتفعات الوسطى وخصوصا إلى الغرب من ذمار ، تستقبل أعلى معدلات للأمطار تتراوح ما بـين 400–700مم في العام ، ولذلك فأنها تشهد تطوراً كبيراً للحقول المدرجة بهدف توسيع الرقعة الزراعيـة كاستجابة للكثافة السكانية ، ولذا فأن الاستمرار في استصلاح الحقول ربما أدى إلى تخريب المواقع الأثريـة أو أزالتها أو ربما أنها ما زالت تختفي تحت حقولها ، وبذلك ربما ينطبق عليها فرضية أنهـا تعتـبر "منطقـة تخريب" (Zone of destruction) التي يقصد بها في اليمن المنـاطق ذات الكثافـة السـكانية والمدرجات الكثيرة وعلى العكس منها " منطقة البقاء " (zone of survival) وهي المناطق التي بها قلـه سكانية كما في أطراف الصحراء [4] . أن هذا الافتراض ربما تدحضة الكشوف الأثرية ، والذي يدعـم ذلك أن أعمال المسح والتنقيب في المرتفعات الوسطى الشرقية (في خولان الطيال) قد كشفت عن وجـود آثار للاستيطان منذ عصور ما قبل التاريخ (كالعصر الحجري القديم والحديـث وعصـر السبرونز)[5] . وعموما فأننا نعزو هذا الشح في المعلومات إلى قلة الكشوف الأثرية والتي نعول على دورها في المستقبل .

ثانياً : اليمن في العصور التاريخية أو الممالك اليمنية القديمة .

لم نعثر على مخلفات أثرية تشير إلى بداية الممالك اليمنية القديمة ، بدءاً من مملكه سبأ ، وإن كنا قد عثرنا في حصن [يفاعه] في نزله (بني بحر) على أدله تشير إلى أن هذا الحصن ربما أنشئ على أنقاض حصن حميري قديم . ودليلنا هو استخدام حجارة الحصن القديم المنحوتة في بناء الحصن الجديد بحجارته غير المنحوتة ، فضلاً عن المرافق السكنية التابعة له . إلا أن أهم ما عثرنا عليه في إحدى غرف الحصن ، هو جزء من نقش منحوت لحتنا بارزا على قطعه حجرية مهندمة ، ولنا بعض الملاحظات حوله :

- هناك صعوبة في قراءة النص تتمثل في أنه غير مكتمل فضلا عن أنه تعرض للتخريب على شكل خدوش بين الأحرف .
- ويبدو من طريقة الخط "النحت البارز" أنه يعود إلى العصر الحميري المتأخر [6] ، كما أنه يحتوي على رموز بها تحوير لحروف المسند التي ربما تمثل مرحلته النهائية التي تتمثل في قله الكتابة والعارفين بها [7] .

كما عثرنا في إحدى المتاجر خارج الحصن على قطعه حجر منحوتة وعليها نقش مكتوب بطريقة المخربشات (Graffitti) استطعنا قراءة كلمه واحدة (م ذرن) بمعنى هزيمة . وربما يوجد غيرها لدى الأهالي أو استعملت لبناء المنازل كما هو الحال في حصن (يفاعه).

ومبلغ علمنا من الأهالي أيضاً أنه توجد في " قرية الموطن " في عزله جوفة بني بحر حجارة بها نقوش، وعليه سنقوم بدراسة أخرى تحليلية لهذه النقوش في شكل متكامل ، واضعين في الاعتبار التحقق من مفهوم " الحدود الثقافية " للنهاية الجنوبية لقاع جهران الذي أعتبر أن المنطقة الشمالية منه تحوي مواقع أثرية بها نقوش مبكرة ، أما إلى الجنوب منه فتمين النقوش الحميرية المتأخرة [8] .

وخاتمه القول أن هذه النماذج النقشيه تلقي الضوء على إمكانية وجود آثار للممالك اليمنية القديمة في مديرية عتمة ، والكشف عنها رهين بنتائج النشاطات الأثرية في المستقبل .

العصر الإسلامي :

تزخر المديرية بكثير من المخلفات الأثرية التي نعتقد أنها تعود إلى العصر الإسلامي ، ومنها:

- **الحصون والقلاع :** ومن أهم المظاهر الأثرية الملفته للانتباه في مديرية عتمة هو الانتشار الملحوظ للحصون والقلاع في المرتفعات وقمم الجبال . وقد قمنا بمعاينة البعض منها ، وتمكنا من حصر أكثر من خمسة وعشرين حصنا واكثر من عشرة قلاع ، نذكر من الحصون (حصن جبل عتمة وحصن ضورة وحصن يفاعه وحصن ابزار وحصن المنصوف) ومن القلاع : (قلعه الذاهبي وقلعه بني أسعد وقلعه شبيه وقلعه الطيار وقلعه سماه) .

وهذه الحصون والقلاع لا شك أنها تمثل العمارة العسكرية في العصور الإسلامية . و مـــن الناحيـة المعمارية تتميز بأن لها صفات مشتركة أهمها :

- أنها مشيدة فوق قمم الجبال لتشرف وتطل على الوديان .
- فيها أبراج دائرية للمراقبة والدفاع .
- تعرض بعضها للتدمير وأعيد بناءه أكثر من مرة وفي فترات تاريخية مختلفة ، كما في حصن يفاعـه الذي سبق ذكره.
- وكانت أخر مرحلة لإعادة التعمير بعد زلزال عام 1982م .
- مادة البناء هي الحجر وأغلبها كتل حجرية غير منتظمة كما استخدموا قطعاً حجريـة منتظمـة منقولة من أنقاض ممالك اليمن القديمة . كما تحتوي على مرافق سكنية ومخازن للحبوب وبركة للمـاء ومربط للمواشي والخيول وبها مدخل رئيسي مدرج وأخر داخلي سري باعتباره مهرباً . فضـلا عـن ذلك يوجد بها جامع صغير مساحته حوالي 2×2م وبجانبه موضأة.

وفيما يخص تاريخها فقد لاحظنا أن هناك نموذجين لطرق التاريخ :

- **أولاً** : أن بعضها يدون تاريخها في الألواح الخشبية لسقف المسجد ، ومثال ذلك " حصن يفاعـه " الذي سبق الحديث عنه، إذ كتب فيه ، " أنه بني في شهر شوال سنه واحد وثمانون و ألف " .

ويبدوا لنا أن هذه الألواح الخشبية ليست مصاحبه لفترة بناء الحصن ، وربما نسخ هذا التاريخ مـن السقف القديم عند تجديد الحصن .

- **ثانياً** : بعض منها يعتمد على الحس التاريخي للرواة ،ومثال ذلك حصـن "جبـل عتمـة " إذ لم نحصل فيه على تاريخ مكتوب ، وكل ما حصلنا علية كان من الذاكرة الجمعية للرواة ، حيـث أورد القاضي حسين العرشي في كتابه " تاريخ وصاب " عدة روايات حول تاريخه إسـتقاها مـن ذاكـرة الأهالي [9] .

ومن خلال ملاحظتنا فضلا عما حصلنا علية من تواريخ ، فأننا لا نستطيع في هـذه المرحلـة مـن الدراسة أن نجزم برأي فيه ، وإن كنا نعتقد أن أقدمها هو " حصن يفاعه " المشار إليه سابقاً حيث وجـد النقش واستخدمت الحجارة المنحوتة القديمة في بناء حصنه الجديد . أما الحصون والقلاع التي بنيت بكتـل الحجارة غير المنتظمة فأنها بشكل عام تعود إلى الدويلات الإسلامية اليمنية التي تصارعت مع الأتـراك أو فيما بينها .

ولهذا نرى أن هذه القلاع والحصون تحتاج إلى دراسة متأنية تشخص فيها أنماط عمارتها وأسس تقسـيمها إلى حصون وقلاع ومن ثم تاريخها .

(ب) المساجد :

تنتشر في جميع قرى مديرية عتمة العديد من المساجد ،إلا أن بعضها يضرب في القدم ، مما يجعلها ذات طابع أثري وتأريخي ، ومثال منها : " جامع الحقيبة وجامع الجوفة " . أن غالبية هذه المساجد القديمة تتميز بأنها مشيدة من الحجر ، وهي أكبر من حيث المساحة مقارنه بجوامع الحصون والقلاع ، كما أن أغلبها لا توجد به مآذن ، وعموما فأنها تتسم بالبساطة في البناء والزخرفة .

(جـ) الأضرحة :

ومن المعالم الأثرية والتاريخية البارزة في المديرية ، هو إنتشار العديد من الأضرحة والقباب للأولياء والصالحين كما في " الطفن ، الحميضه و الشرم السافل " وغيرها . أن الضريح ليس هو المدفن نفسه ، ولكنه يحتوي على المعلم المعماري [10] ، بينما لا يشكل المدفن سوى القبر وهو عبارة عن تابوت ، أي صندوق من الخشب يحدد موضع الدفن وغالباً ما يكون مزخرفاً ، ولم يرد في النصوص المبكرة بلفظ تابوت وإنما بلفظ (ضريح)[11] ومن هنا أتت التسمية . وقد عرفت اليمن التوابيت الخشبية منذ مطلع القرن السابع الهجري وقد ارتبطت بقبور الأئمة الزيديين [12] .

يعد ضريح (المطهر محمد الجرموزي)من أهم الأضرحة في المديرية، ذلك لأنه يحتوي على تاريخ أقرب إلى الواقعية مقارنه بغيرة من الأضرحة . تزين تابوت هذا الضريح زخارف كتابية من جوانبه الأربعة ، كتب عليها : إن مولد صاحبه في " شهر محرم سنه تسع وألف " ، وأنه توفي في " عشرين من شهر الحجة سنه ستة وسبعون وألف " . والضريح تعلوه قبه بصلية الشكل قام ببنائها أبنه عبد الرحمن أبن المطهر سنه 1090هـ ومن ثم تحول الضريح إلى مسجد .

أما المسجد القديم الذي يوجد الآن خارج الضريح فقد كان في الأصل مسجداً للقرية ، بناه الشيخ المطهر حسبما جاء في الألواح الخشبية لسقفه " ابتدأ إعماره في العشرة الأولى من شهر شعبان عام خمسه وستين وألف " . وأننا نعتقد بأن هذه الألواح الخشبية ليست مصاحبة لزمن بناء المسجد ، وربما استنسخت عند تجديد السقف . وهذا المسجد أصبح الآن مسجد للنساء .

(د)المخطوطات :

توجد بالمديرية بعض الأسر مشهود لها بالعلم والاستنارة وتمتلك مكتبات فيها مخطوطات قيمة ، مثل ، مكتبة بني معوضة وبني الجرموزي وبني السماوي وبني المعلمي وبيت الغابري . كما توجد مكتبات في بعض الجوامع مثل ضريح مسجد الجرموزي . وقد علمنا أيضاً أنه توجد مخطوطات متناثرة لدى بعض الأسر ، لم يتم التعرف أو الوصول إليها بحكم تنقلها وعدم الاهتمام بها ، وهذه بلا شك تمثل ثروة علمية

لا يستهان بها تنتظر نفض الغبار عنها . وإدراكا لأهميتها فأن ما لكيها على استعداد لمزيد من التعاون مع الجادين من المهتمين والباحثين .

ومن خلال هذه اللمحة التاريخية الخاطفة نرى أن مديرية عتمة تحتوي على مخزون من المخلفات الأثرية والتاريخية على درجة من الأهمية التي تستلزم المزيد من البحث والتمحيص الذي يشحذ همم الباحثين وطلاب التخصصات العلمية لفحصها واستجلاء حقيقتها . وإن هذا الحلم النبيل بجعلها محمية طبيعية ستكون بمثابة الحفز والميسر لعمل الباحثين .

الهوامش

* في الأصل ورقة قدمت في الندوة العلمية // عتمة محمية طبيعية // المركز الثقافي ، صنعاء 14-15 مارس 1999م

1. محمد عبد الله ، يوسف : أوراق في تاريخ اليمن وآثاره ، دار الفكر المعاصر – بيروت ، دار الفكر دمشق ، ط 2 1411هـ-1990م، ص 311 .

2. ستيون لويد : آثار وادي الرافدين ، ترجمه سامي سعيد الاحمد ، منشورات وزارة الأعلام والثقافة ، الجمهورية العراقية 1980م صـ14.

(3) Gibson, M., and Wilkinson, T. J.1995. The Dhamar Plain,Yemen: A preliminary study of the archaeological Landscape. Proceedings of the Seminar for Arabian studies vol. 25, PP. 162-163.
-Wilkinson, T. J., Edens, :C. and Gibson, M. 1997. The Archaeology of the Yemen High Plains: A preliminary chronology Arabian archaeology and epigraphy, p.103.
-Edens, C. and Wilkinson, T. J. 1998. Southwest Arabia during the Holocene: Recent Archaeological Developments. Journal of World Prehistory, vol. 12, NO.1.p.59.

(4) Gibson, M. and Wilkinson, T. J. 1995. The Dhamar Plain, Yemen: A preliminary study of the archaeological Landscape. Proceedings of the Seminar for Arabian studies vol. 25, p.162.

(5) de Maigret, A. 1983 . Is MEO activities: Arab Republic of Yemen. East and West 340-344.-ibid . 1984a. Archaeological activities in the Yemen Arab Republic, 1984. East and West 34;423-454.
-ibid . 1984 b . A Bronze Age for Southern Arabia. East and West 34; 75-106
– دي ميغريت ، اليسا لدرو : عصر نحاسي في جنوب الجزيرة العربية . الإكليل العدد الأول السنة الخامسة ، صيف 1407هـ-1987 م صـ73-96 .

-ibid. 1988 Archaeological survey on the Wadi Yala antiquities. In de Maigref, A.(ed), the Sabaean Archaeological Complex in the Wadi Yala (Eastern Khawlan al-Tiyal, Yemen Arab Republic), Is MEO, Rome PP. 1-20.

(6) روبان ، جوليان كرستيان نشوء وصيرورة أنجدية جنوب الجزيرة العربية : اليمن في بلاد ملكة سبأ ، ترجمه د: بدر الدين عرودكي ، مراجعه د. يوسف محمد الله ، معهد العالم العربي ، باريس ودار الأهالي ، دمشق (الدليعة العربية) 1999، صـ56

(7) المصدر نفسه : حضارة الكتابة ،صـ83-84 .

(8) Beeston , A.F.L. 1975 The Himyarite Problem p. 6 .

(9) العرشي ، القاضي حسين بن أحمد : تاريخ وصاب . مركز الدراسات والبحوث اليمنية – صنعاء 1979، صـ149 م م .

(10) غلان ، رودريغو مارتين : مناهج البحث الأثري ومشكلاته . تعريب وتقديم وإضافة ، د:خالد غنيم ، معهد ثربانتس –دمشق 1998،صـ203 .

(11) خليفة ، ربيع :الفنون الزخرفية اليمنية في العهد الإسلامي ، الدار المصرية اللبنانية 1992، صـ96-97.

(12) المصدر نفسه ، صـ98.